تاديوش لوفيتسكي، دولة سودانية وسيطة غير معروفة: مملكة زافون (و)[1].

ترجمة: أ/ عبد القادر مباركية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية

الملخص:

حاول الباحث في هذا المقال أن يكشف الغطاء عن مملكة سودانية عاشت خلال العصر الوسيط وكادت أن تختفي من المصادر التاريخية بسبب خطأ بسيط في كتابة اسمها. في مقاله هذا عاد الكاتب إلى كل النصوص التاريخية والجغرافية التي اهتمت بذكر هذه المملكة وصحّح تسميتها استنادا إلى تخمينات منطقية ثم جاء ليفصّل في تاريخ هذه المملكة وموقعها ضمن التجارة السودانية وعلاقاتها مع بلاد المغرب. قدرة الباحث على التحليل وتتبع المعلومات كان لها أثر كبير في نسج هذا المقال وإعادة مملكة إلى الوجود بعدما هدّدها النسيان والتجاهل.

Abstract :

The researcher tried in this article to reveal the cover for the kingdom Sudanese lived during the middle ages and almost disappear from historical sources because of mis-typing. In this article the researcher returned to all geographical and historical texts, which focused on the remembrance of this kingdom and correct the call, based on the logical guesses, then he came to delve deeper into the history of this kingdom and its location within the Sudanese trade and its relationship with Maghreb. The researcher's ability to analyze and track informations had a significant impact in this weave, and bring the kingdom into being after he threatened her forget fullness and ignorance.

(1)- Tadeusz Lewicki, *un État soudanais médiévale inconnu : le royaume de Zāfūn (u).* in. Cahiers d'études africaines. Vol. 11. N 44. 1971. pp. 501-525.

ياقوت (1179-1229م) عالم لامع ورحّالة عربي، إنه مؤلف معجم جغرافي كبير هو معجم البلدان[1]، الذي أتمه بين (1218-1224م)[2]. ضمن معلوماته المختلفة، نجد بعض المعلومات المهمة حول الأمكنة، البلدان وبعض شعوب الصحراء والسودان الغربي على الخصوص منه في الأوسط. توجد هذه المعلومات في حوالي عشرين موضعا من معجم البلدان، جزء منها مبنيّ جزئيا أو كليا على المعطيات الموجودة في المؤلفات الجغرافية العربية للقرنين 10-11م مثل ابن الفقيه الهمداني، المهلبي، ابن حوقل والبكري، وفي أغلب الأحيان فهي معطيات أصلية. لقد استخدم ياقوت روايات شفوية استقاها من إخباريّين مجهولين، وهي على الأرجح روايات رحّالة وتجار زاروا الصحراء وبلاد السودان ومن المحتمل أن مؤلف المعجم قد التقاهم في إحدى المدن التجارية الكبرى بمصر، سوريا أو العراق. تبدو المعلومات المستقاة من الإخباريين أكثر دقة من تلك المستخرجة من المصادر المكتوبة. على العكس من أوصاف الصحراء وبلاد السودان الموجودة في الكتب الجغرافية المنسوبة إلى ابن حوقل والبكري وكذلك في كتاب روجر الإدريسي (1154م)، وهو غير معروف لدى ياقوت—أوصاف مترجمة ومعلّق عليها مرات عديدة من قبل المستعربين والأفارقة- فإن المعلومات التي تضمنّها معجم البلدان جذبت نسبيا شيئا من الاهتمام لدى المؤرخين المعاصرين.

(1)- -F. Wüstenfeld, *Jacut's geographishes Wörterbuch*, Leipzig, 1866-1870, I-IV, passim.

(2)- ينظر حول هذا الكتاب:

I. Y. Krackovsky, "Arabskaya geograficeskaya literatura" in Izbrannye socineniya Moscou-Leningrad, 1955-1960, IV, pp 330-342; G WIET, Introduction la littérature arabe, Paris, 1966, pp. 207-208; LEWICKI, Arabie External Sources for the History of Africa to the South of Sahara, Wroclaw-Warszawa- Krakow, 1969, pp.68-70.

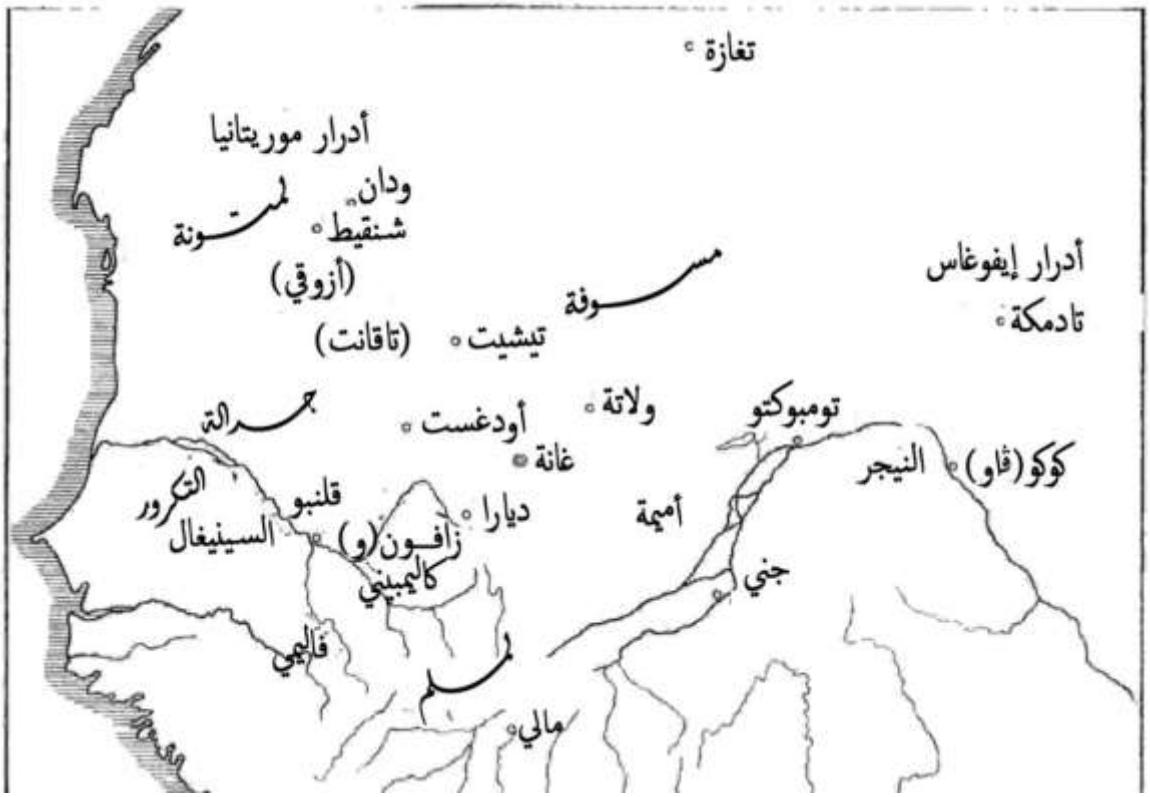

من بين المنشورات التي أشارت إلى هذا الكتاب، نذكر كتابين جديرين بوقفة خاصّة. الأول ألّفه العالم المصري يوسف كمال الذي استشهد- وقد ضمنّاهم في ترجمة فرنسية للأسف تفتقد إلى تعليقات- بمواضع من نصوص مستخرجة من كتاب ياقوت تتعلق بمواضع بلدان، وشعوب إفريقيا[1]. النشريّة الأخرى وهي أكثر أهمية من مؤلّف يوسف كمال تتمثل في الترجمة الألمانية للعالم الألماني المشهور المهتم بالشؤون الإفريقية ي. دامان[2]. صحيح أنّ هذا الأخير انصبّ جهده على ترجمة حوالي ثمانية مقالات من المعجم الجغرافي لياقوت متعلقة بإفريقيا السوداء—"التبر"، "تكرور"، "زغاوة"، "غانة"، "كانم"، "كناوة"، "كوكو"، و"كوار"- لكنه أرفق ترجمته بعدد من تعليقات ذات أهميّة كبيرة بفضلها أصبح فهم المعلومات الموجودة في تلك النصوص أكثر سهولة.

بالنسبة للمقالات التي مضت بصمت ضمن ترجمة دامان والتي تُركت دون تعليق في النشرية غير المكتملة ليوسف كمال، فالمكانة الأولى التي تعود للفظة زافون مهمة جدا لمعرفة تاريخ السودان الغربي وعلاقاته مع إفريقيا الشمالية خلال ق 12م. وهي فترة التجزئة السياسية لهذه المنطقة بعد انهيار دولة غانة

(1)- Youssouf Kamal, *Monumenta cartographica Africae et Aegypti*, Leyde, 1932-1934, III, f^0 948 r^0-956 v^0, passim.

(2)- E. Dammann, *Beiträge zur arabischen Quellen zur Kenntnis des negerischen Africa*, Bordesholm, 1929, passim.

في سنة 1076م الآهلة من طرف اثنية السونينكي ذات الاعتقاد الإحيائي. قبل أن تدمّر من قبل المرابطين البربر المسلمين[1]، امتدت سلطة هذه الدولة على كل أراضي السودان الغربي وأصبح تاريخها بعد 1076م نوعا ما غير معروف. قدّم لنا البحث الجغرافي للإدريسي في هذا الموضوع معلومة واحدة والتي من خلالها في سنة 1154م –يعني في فترة تأليف هذا الكتاب– أصبحت دولة مستقلة وقوية تحكمها عائلة دخلت الإسلام ومن أصول سونينكية، وممثليها يعودون إلى خلفاء علي صهر النبي (ص)[2]. في وصفه للسودان الغربي كتب الإدريسي أن ملوك غانة في منتصف القرن 12م قد بسطوا سيطرتهم على قسم كبير من هذه المنطقة وأشار إلى بعض الدول التي نجحت في الحفاظ على استقلالها. وفقا لمعيار معين بقيت هذه المعلومات محل جدال بسبب وجود رواية شفوية سونينكية. من خلال هذه الرواية فقد تجزأت مملكة غانة في القرن 11م إلى كيانات مستقلة كثيرة تشغل فيها مملكة الصوصو مقاطعة كانياڤا والأقاليم القريبة، ثم المملكة التي أسستها سلالة دوكوري على أراضي مقاطعات واڤادو وباكونو. وكذلك الدولة التي أسّستها سلالة نياكاتي وعاصمتها مدينة ديارا الواقعة في مقاطعة كينجي. ذكرت الرواية كذلك ممالك أخرى قامت على أنقاض غانة، يبدو أنها تأسّست كلها في نهاية القرن 11م من قبل سونينكيين هاجروا من هذه الدولة إلى أراضي محتلة من طرف مواطنيهم الذين استقروا هناك منذ زمن بعيد[3]. بالنسبة لغانة وبكل وضوح يمكننا القول أن الرواية التي استشهدنا بها سابقا تؤكد أنه في بداية القرن 12م كانت هذه المملكة صغيرة والوضعية لم تتحسن إلى الأفضل إلا في منتصف هذا القرن. في سنة 1203م ضُمّت غانة إلى مملكة الصوصو هذه الأخيرة بدورها احتلها ملوك مالي في سنة 1240م. خلال القرن 13م ألحقها هؤلاء الأخيرين بمملكة غانة لاسترجاع الوحدة السياسية للسودان الغربي في بداية القرن 14م وأسسوا مملكة اتسعت حدودها كثيرا عن حدود غانة خلال القرنين 8-9م أي في فترة ازدهارها[4].

واحدة من الممالك السودانية التي حققت أو استعادت استقلالها نتيجة لاحتلال غانة من قبل المرابطين في سنة 1076م هي مملكة زافون التي عرفنا وجودها بفضل المعجم الجغرافي لياقوت.

---

(1)- حول هذا الموضوع ينظر:

M. Delafosse, *Haut-Sénégal-Niger*, Paris, 1912, I, pp 122-124 et II, pp 12-59 et 154-170 ; R, Cornevin, *Histoire des peuples de l'Afrique noire*, Paris, 1960, pp. 242-247.

(2)- R. Dozy et M. J. de Goeje, *description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi:texte arabe publié…avec une traduction, des notes et un glossaire*, Leyde, 1866, texte arabe, pp.5-11, trad. Franç. pp.6-11.

(3)- Delafosse, II, pp 55-56 et passim, Cornevin, p. 246.

(4)- Ibid, II, pp. 55-56 et passim, Cornevin, pp. 246-249.

قدم مؤلف معجم البلدان وصفا كبيرا لزافون في الفصل الذي يحمل العنوان نفسه[1]، بالإضافة إلى إشارة مقتضبة حول هذا البلد توجد كذلك إشارة في النص الذي تناول مدينة غدامس في ليبيا[2].

النص الأول: "زافون ولاية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب متصلة ببلاد الملثمين لهم ملك ذو قوة وفيه منعة وله حاضرة يسمونها زافون وهو يرتحل وينتجع مواقع الغيوث، وكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب وملك الزافون أقوى منهم وأعرف بالملك، والملثمون يعترفون له بالفضل عليهم ويدينون له ويرتفعون إليه في الحكومات الكبار وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجّا على أمير المسلمين ملك المغرب اللّمتوني الملثم فتلقّاه أمير المسلمين مترجّلا ولم ينزل له زافون عن فرسه، قال من رآه بمراكش يوم دخوله إليها: وكان رجلا طويلا أسود اللون حالكه، منقّبا، أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان، أصفر باطن الكفين كأنهما صبغتا بالزعفران عليه ثوب مقطوط متلفع برداء أبيض، دخل قصر أمير المسلمين راكبا وأمير المسلمين راجلا بين يديه". (النص مأخوذ من المصدر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1988، ج3، ص:127)

لكن من الإشارة الموجودة في نص غدامس ينتج أن هذه المدينة تقع في الجزء الجنوبي للمغرب وعلى طريق بلاد السودان وكلها تقع على الضفة الأخرى من بلد زافون. دون شك تم استقاء هذه المعلومة من شخص وصل إلى زافون عبر المغرب الأقصى والصحراء الغربية يعني من الشمال الغربي ما يدل على وجود طريق آخر يربط هذا البلد بغدامس وبذلك يتجه نحو الشمال الشرقي لزافون. هذه القطعة لا تبدو واضحة كما ينبغي لذلك لن نأخذها بعين الاعتبار في تصوّراتنا اللاحقة.

دون جدال فالرواية حول مملكة وملك زافون[3] المنقولة بواسطة معجم البلدان أصلية إذ هي غير موجودة في أيّ من المؤلفات التي اعتمد عليها ياقوت في كتابه. كذلك لابد من الإشارة (على الأرجح من وسيط ثالث) إلى أن هذه الرواية الشفوية لإخباري مجهول ودون شك استقى منه الرواية المتعلقة بدخول ملك زافون إلى مراكش. ومن جهة أخرى هذه الرواية مؤرخة بفترة قديمة جدا عن زمن تأليف معجم البلدان. ومثلما ينتج من النص الذي سأستشهد به فالرواية التي تهمنا تعود إلى المرحلة التي حكم فيها المرابطون بلاد المغرب. في الواقع لا يوجد إلا أمير واحد من هذه السلالة يستطيع الاختفاء تحت اسم اللمتوني الملثّم وأمير المسلمين مثلما يسميه ياقوت الملك الذي يحكم مراكش في زمن زيارة ملك زافون.

---

(1)- Wüstenfeld, II, p. 980.

(2)- Ibid, III, p. 776.

(3)-يوسف كمال (III f° 960 r^0) حيث كتب هذا الاسم زافونو بوضع الواو في نهاية الكلمة اعتمادا على ياقوت.

تنحدر سلالة المرابطين وتنتمي في الأصل إلى القبيلة البربرية لمتونة التي استقرت خلال العصر الوسيط في الصحراء الغربية وفي الوقت نفسه اكتسبت مركز قبلي في منطقة أدرار الموريتانية[1]. من هنا جاء اسم "أمراء لمتونة"[2] أو بكل بساطة "لمتونة"[3] التي قدّمها الكتّاب العرب القروسطيين لأمراء العائلة المرابطية. قبيلة لمتونة من بين القبائل البربرية المستقرّة في الصحراء الغربية والوسطى والتي يسميها الكتّاب العرب القروسطيين الملثمون (مفرده. الملثم)، والذي يعني "واضع اللّثام" من الاسم العربي لثام، "حجاب يعمل على تغطية أسفل الوجه وخاصة الفم"، وبذلك فهذه الكنية "واضع اللثام" (الملثّم)، استخدمت لوصف الأمير المرابطي الذي أشار إليه ياقوت. أود هنا أن أذكّر أن الإدريسي وهو جغرافي عربي من ق 12م كذلك يسمي أمراء العائلة المرابطية بالملثمين[4] وأن المؤرخ ابن خلدون في حديثه عن دولتهم بالمغرب وإسبانيا يطلق عليهم تسمية "دولة الملثمين"[5]. كذلك تجدر الإشارة إلى أن الرواية المتضمّنة وصول ملك زافون إلى مراكش والتي استخدم فيها ياقوت وصف ملك ومملكة زافون والموجودة في معجم البلدان مؤرخة –الروايتين– بفترة حكم العائلة المرابطية للجزء الغربي من بلاد المغرب يعني في سنوات 1053-1147م.

من جهة أخرى تتضح لي إمكانية تحديد هذه الفترة وربطها بالربع الأخير من القرن الذي حكم فيه المرابطون، يعني في زمن انهيار سلطتهم. من الأفضل أن نتحدث عن هذه الفرضية الأخيرة لوصف الصورة المحفوظة لملك زافون من قبل الأمير المرابطي الذي يبقى اسمه بالنسبة لنا مجهول. استقبال لا مثيل له كهذا مطبوع باحترام مبالغ فيه إن لم يكن تذلّلا مبتذلا للملك الأسود من قبل هذا الأمير لم يكن واردا في فترة الحكم اللاّمعة ليوسف بن تاشفين (1061-1107م) وحتى كذلك في بداية حكم ابنه علي بن يوسف (1107-1143م). إلى هنا سقطت سلطة المرابطين زمن يسير بعد قدوم المهدي بن تومرت (1121-1130م) وخليفته عبد المؤمن المؤسّس المستقبلي لدولة الموحدين الذي باشر أنشطته منذ 1128م. هؤلاء رفعوا الأسلحة في أيديهم ضد آخر أمراء المرابطين فهيّجوا الخمسة والعشرين سنة الأخيرة

---

(1)- Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbères*..., trad. de l'arabe par le Baron de Slane… Nouvelle édition publiée sous la direction de Paul Casanova..., Paris, 1925-1956, II, pp 67-86 *et passim* ; R Mauny, *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age*, Dakar, 1961, pp. 456, 521-522, passim.

(2)- Ibn Khaldoun, II, p. 175.

(3)- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 68 trad. franç, p. 78. Ibn Khaldoun, II, pp. 173 et 175.

(4)- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 66 et 67 trad. franç, pp.76 et 88

(5)-. Ibn Khaldoun, II, p. 110.

حول سلطان الملثمين (المرابطين) ينظر قطعة من كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة لابن سعيد (ق.8م).In Kamal, III, f^{0}1083.

من حكم هذه العائلة[1]. ولوضع حد لهذه الثورات المستمرة من قبل القبيلة الجبلية القوية مصمودة، أصبح المرابطون بحاجة إلى كميات معتبرة من الأموال وهذا يشرح جيدا وبوضوح الخضوع المتكلّف والمتبنّى لاحترام ملك زافون من قبل الأمير المرابطي الذي تحدث عنه ياقوت. في الواقع هذه الدولة الأخيرة كما قلت سابقا متاخمة لواحد من الأقاليم الرئيسيّة من السودان الغربي الغنية بالذهب، كما شكلت واحدة من المصدّرين الكبار للذهب ومواد سودانية أخرى مبحوث عنها كثيرا مثل: العبيد، العاج، خشب الأبنوس، إلخ...نحو بلدان المغرب. يشتري هذه المواد في عاصمة زافون التجار المغاربة القادمين من المراكز التجارية الرئيسية للدولة المرابطية مثل مقاطعة السوس الأقصى في جنوب المغرب الأقصى وناحية سجلماسة وتافلالت في الجنوب الشرقي من هذا البلد. كذلك ومع الأخذ بالحسبان كل ما قلناه سابقا فإنه يجدر بنا تحديد فترة تحرير رواية زافون التي استخدمها ياقوت في سنوات 1121-1147م. من جهة أخرى من المرجّح أن شاهد العيان على دخول ملك زافون إلى مرّاكش قد التقى بياقوت شخصيا. ومن موضع آخر يمكن الاعتقاد أن روايته قد انتقلت إلى مؤلف معجم البلدان عبر وسيط ثالث، والذي من الممكن أن يكون أكثر شبابا من الشاهد لكن أسنّ من ياقوت.

نحاول الآن أن نكتشف في أي جزء من السودان الغربي يمكن أن تتواجد فيه مملكة زافون. من خلال معجم البلدان فإنها ستكون قريبة من المغرب- في العصر الوسيط منح هذا الاسم للشمال الغربي من إفريقيا- وتتاخم بلدان الملثمين. تمنح المصادر العربية الوسيطة هذا الاسم للقبائل البربرية المستقرة بالصحراء الغربية والوسطى والتي من بينها قبيلة لمتونة التي ينحدر منها المرابطين. مثلما أشرت إليه في الأعلى فإن اسم الملثمين الذي منحه إياهم العرب جاء من باب التفاصيل المميزة لثياب رجال هذه القبيلة وهو وجود لثام يغطي الوجه وخاصة الفم. هذا اللثام لا يزال يوضع اليوم من قبل فروع هؤلاء البربر البدو الصحراويين وخاصة من قبل التوارڤ (أظن هنا في حلف توارڤ الأهقار، آجر، أوليميدن، كال وي) وعندهم تم أخذ الاسم البربري (تاماهق) لـ تغلماست. إنها قطعة من قماش رقيق متجعد طويلة وضيقة يلفها التوارڤ حول الرأس بهدف تغطية الجبهة والفم، الأعين فقط تبقى غير مغطاة. لثام كهذا لا يمكن أن يضعه إلاّ الرجال البالغين. الرجال الأشراف لهم حق وضع ألثمة سوداء أو زرقاء، بينما القبائل التابعة والعبيد السود فعليهم القبول بألثمة بيضاء أو مختلطة[2]. الوصف الوحيد للثام الذي يضعه رجال القبائل البربرية الصحراوية ما نجده في المصادر العربية الوسيطة التي اعتمدت على البكري، جغرافي عربي كتب في 1068م.

---

(1)- A.Bel, « Almohaden », in Houtsma et al. *Enzyklopaedie des Islam*, Leyden-Leipzig, 1913, 1, pp. 332-333.

(2)- R. Corso, « II velo dei Tuaregh », *Annali. Istituto Universitario Orientale di Napoli*, Nuova Serie, III, 1949, pp 151-166.

لقد قدم لهذا اللثام الاسم العربي "النقاب" وكله يؤكد أن هذا النقاب–لا يسمح برؤية سوى الأعين– يغطي الوجه أكثر من اللثام[1]. ليست لي هنا نية الاشتغال على أصل هذه العادة البربرية، والمهتمون سيجدون معلومات في دراسة واسعة مخصّصة لهذه الإشكالية للباحث الإيطالي ر. كورصو[2]. دائما أود أن أذكّر هنا بعادة وضع اللثام الملاحظة لدى رجال قبيلة أنبية التي تسكن مجالات موريتانيا الحالية قرب السودان الغربي، وهو ما أكده اليعقوبي مؤرخ وجغرافي عربي عاش في نهاية ق 9م[3]. الرحالة ابن حوقل الذي قام بجولة في الصحراء الغربية في منتصف القرن 10م لاحظ مما لاحظه هذه العادة عند رجال قبيلة مسوفة في ناحية ولاتة وتغازة وكذلك لدى رجال قبيلة صنهاجة (زناقة)[4]. تبعا لمؤلّفين عرب قروسطيين آخرين من بين قبائل الملثمين تصطف كذلك قبيلة جدالة ولمتونة وهم شعوب البدو المستقرين على أراضي موريتانيا الحالية[5]. يسكن الصحراء الوسطى قبائل أخرى من "واضعي اللثام" وخاصة لمطة في الهقار الحالي وطارقا التي جاء منها اسم الطوارف اليوم[6]. من بين واضعي اللثام يوجد كذلك سلطان بربري لمملكة تاكدا في منطقة إير الحالية[7]، ومن جهة أخرى كل الشعوب البربرية التي تسكن الصحراء من الأطلسي إلى غدامس[8].

---

(1)- أبو عبيد البكري، وصف إفريقيا الشمالية، النص العربي، نشر دوسلان، ، ط2، 1911، الجزائر، ص:148-170.

Description de l'Afrique septentrionale par El-Bekri, trad. par DE SLANE, éd revue Alger, 1913, pp. 283 et 321.

حول النقاب ينظر:

Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde-Paris, 1927, II, p. 707.

حول اللثام الذي يضعه العرب القدامى في القرن 8م:

Masôudi, *Les prairies d'or*, texte et traduction par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1861-1877, IV, p. 334.

(2)- Corso, *passim*.

(3)- « Kitâb al-Boldân auctore Ahmed ibn abi Jakûb ibn Wâdhih al-Kâtib al-Jakûbî », in M.J.De Goeje, *Bibliotheca Geographorum arabicorum Lugduni Batavorum*, 2e éd. 1892, p. 360.

(4)- J.H.Kramers, *Opus geographicum auctore Ibn Haukal*... Lugduni Batavorum, 1938, p. 102 ; Ibn Hauqal, *Configuration de la terre (Kitab surat al-ard)*, trad par J.H.Kramers et G. Wiet, Beyrouth-Paris, 1964, p. 100.

(5)- Ibn Khaldoun, II, pp. 64 et 104.

(6)- Ibid, I, 275. et II, p. 64.

(7)- Ibid. II, p. 116.

(8)-ينظر المؤلف الجغرافي المجهول للقرن 12م المسمى كتاب الاستبصار. In Kamal, III, f^0 910 v^0.

بالنسبة للحدود الجنوبية للمجالات الصحراويّة الآهلة في العصر الوسيط بالبربر الرّعاة "ملثّمون" يظهر أنهم يتبعون خط المطر 300 ملم/س والذي حسب ر.موني يفصل الصحراء الجنوبية والساحل الشمالي عن الساحل الجنوبي[1]. شكلت المنطقتين الأوليين مجالا للرعاة البيض[2] المستقلين أو في بعض الأحيان تابعين بصورة متراخية لدول سودانية كبرى. بالضبط هذه المجالات كانت في العصر الوسيط آهلة بالقبائل البربرية المعروفة باسم "الملثمين". على العكس ساحل الجنوب الممتد بين خطّي المطر 300 و600 ملم وكذلك مثلّت المنطقة السودانية الشمالية القريبة من الجنوب والتي تمتد إلى خط المطر 1000 ملم جزء من مجال دول سودانية كبرى: مثل تكرور، السنغال الحالي، غانة، ڤاو، يعني السونغاي، كانم بورنو، وممالك الهوصا. إنها منطقة الزراعة (يزرع خاصة الذرة البيضاء، السمسم) فيها نسبيا تلعب الزراعة دورا هاما بسبب التدهور المتفاوت ومحدودية الأراضي الخصبة. القسم الأكبر من هذه الأراضي مناطق للرّعي إذ تعد تربية الأبقار والأغنام العنصر المهم في الاقتصاد المحلي[3]. إذن هنا يجب أن نبحث عن دولة زافون التي فيها السلطان حسب ياقوت "يعتمد على حياة البدو، ويضع جنوده في الفضاءات الفلاحية المغلقة" ويملك إقامة ثابتة. نضيف إلى هذا أنه في الأراضي الصحراوية الجنوبية وفي الساحل الشمالي تنتشر القبائل البربرية نحو الشرق –الطوارڤ اليوم– لم يتجاوز إطلاقا السواحل الشرقية لكتلة إير. كذلك يجب أن نحدد المجالات التي فيها يمكننا تحديد موقع بلاد زافون القريب من هذه القبائل والمتاخم للصحراء وللسودان الواقعتين غرب 10°. موقع أكثر دقة لزافون في قطعة من الأرض طويلة كذلك ربما ممكنة بفضل وجود معلومات أخرى حول هذا البلد وهي معلومات متوزعة في مصادر عربية متعددة للقرنين 11–15م. ومن جهة أخرى جزء فقط من هذه المصادر أصلية واسم البلد الذي يهمنا يظهر بصيغ قليلة الوضوح.

تتواجد المعلومة الأقدم حول بلد زافون في المؤلف الجغرافي للبكري المذكور سابقا، والمعنون بـ: *كتاب المسالك والممالك* كتبه في 1068م[4]. هذا الكتاب في الأساس معروف لكن بالنسبة للفصول المتضمنة لوصف بلدان إفريقيا ومن خلال مخطوطة المتحف البريطاني (تحمل الرقم 374 واليوم الرقم 2 17 Bd-PSS/90) والتي شكّلت قاعدة للنشرية والترجمة الفرنسية لـ: ماك ڤوكين دو سلان[5]، وكذلك

(1)- Mauny, pp. 216-219.

(2)- Ibid, p. 217.

(3)- Mauny, pp. 219-222.

(4)- حول البكري ووصفه لبلاد السودان ينظر: Lewicki, pp. 51-57.

(5)- Description…. Par Abou-Obeïd-el-Bekri.

للترجمة الفرنسية الجزئية لفانسان مونتاي[1]. الاسم الذي يهمنا يظهر في كتاب البكري بصيغة مفككة **زافقو** وعند دوسلان تصبح هذه الكتابة العربية تصبح **زافكو** أما عند مونتاي **زاكفاوا**. هذه الصيغة الأخيرة تنطلق من الكتابة الصوتية العربية لاسم سوداني افتراضي "دياغفاوا" أو "دياغفو"[2]. إعادة التركيب هذه- على الرغم من أن مونتاي لم يقل ذلك بوضوح- تبين أن حرف الألف الموجودة في نهاية الكلمة العربية ليست إلا ألف الإطلاق وهي عادة كتابية بسيطة ليس لها أي أثر صوتي: توجد هذه العادة كثيرا في المخطوطات المغربية (ليس المغربية فقط) في الكلمات ذات الأصل الأجنبي المنتهية بـ: وَ أو أُو. قدم لنا المستعرب البولوني اللامع ت. كوفاتلسكي[3] عدد كبير من الأمثلة يستعمل فيها ألف الإطلاق في الأسماء الجغرافية ذات الأصل غير العربي، وقد استخرجها من كتاب البكري ومن عند مؤلفين عرب قروسطيين آخرين. كذلك هناك كتابة أخرى لـ "و" النهائية في اسم "زافقو" غير أنها قلما شكلت خاصية معزولة.

تتبعا لهذه الاعتبارات والأسباب، يسرني أن أشير إلى أن الحرف الرابع من الاسم الذي أناقشه في مخطوطة كتاب البكري والموجودة في مجموعات المتحف البريطاني، يأخذ صيغة **ق** لابد وأن يكون **ن** مشوهة شوهها ناسخ عربي والتي في رأيي مرسومة بطريقة صحيحة في النسخة الأصلية للكتاب. أودّ هنا أن أذكر بأن الخطأ ق=ن يتصادف غالبا مع الكلمات ذات الأصل الأجنبي[4]. إذا قبلنا التصحيح المطروح في مكان **زافقو** (مثلما هو موجود في المتحف البريطاني) فسنحصل على **زافنو** والتي تكون حسب كل احتمال مرسومة في النسخة الأصلية لكتاب البكري. كتابة أخرى للاسم السوداني نفسه استشهد به ياقوت مثل زافونو. يظهر أنه وانطلاقا من الصيغة التي استشهد بها هذا الأخير يمكننا أن نرمم "و" حرف العلة الذي يلي مباشرة الحرف "ف" وهذا يشكل خطأ لدى البكري ما يعطينا في النهاية الاسم **زافونو**.

من خلال البكري زافونو اسم بلد يحدد هذا الجغرافي موقعه في الجزء الغربي من الساحل الجنوبي بين مدينة قلنبو (تنطق قلمبو) أو ڤالامبو من جهة وغانة عاصمة المملكة التي تحمل الاسم نفسه من جهة

---

(1)- V. Monteil, « Al-Bakrî (Cordoue 1068) routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest », *BIFAN*, Série B, XXX, I, 1968, pp. 39-116. 2 cartes

(2)-.Description… par Abou-Obeîd-el-Bekri, texte arabe, p. 173. Trad franç. P. 326. Monteil, pp. 69 et 109.

(3)-T. Kowalski, *Relacja Ibrahîma ibn Ja'kuba z podrozy do krajowia stowianskich w przekazie al-Bekrïego (Relatio Ibrahim ibn Ja'kuba de itinere slavico quae traditur apud al-Bekrî),* Krakow, 1946 pp 72-74.

(4)- T. Lewicki, *Polska i kraje sqsiednie w swietle « Ksiêgi Rogera » geografa arabskiego z XII w. al-idrisi'ego (La Pologne et les pays voisins dans le 'Livre de Roger' d'al-Idrîsî, géographe arabe du XII siècle),* Krakow, 1er partie, 1945, p. 104 n° 16.

أخرى. حسب مونتاي قلنبو بلد من الممكن أن ينطبق على ڤالام المعروفة في يومنا الحالي[1]. يتعلق الأمر إذن بالناحية ذات التبر الواقعة على المجرى الخارجي للنهر الذي يصب على يسار السنغال أين توجد مناجم الذهب المستغلة منذ ق 8م[2]. في هذا الصدد نحاول التعريف بـ قلنبو. في الواقع عبد الله باثيلي (IFAN de Dakar) وبعد تحققه فإن الاسم التاريخي لـ ڤالام هو ڤادياڤا وأن ڤالام لم يستعمل إلا من قبل الأوروبيين وبحار ولوف في فترة قديمة، وهذا ما يقدم فرضية حسبها أن مدينة قلنبو عند البكري ليست إلا مدينة قديمة تسمى ڤالامبو تقع في ناحية المياه التي تصب في السنغال. شكلت هذه المدينة الإقامة الأصلية لعصبة باثيلي الذين حكموا ذات يوم ڤادياڤا[3]. بالنسبة لمدينة غانة ومن خلال رأي على العموم مقبول فإنه يجب تعيينها في آثار كومبي صالح الواقعة في جنوب جمهورية موريتانيا الحالية جنوب غرب موقع نيما على الطريق المؤدية من تمبدرا إلى نارا[4].

معلومات أخرى حول بلاد زافون (و) قدمها لنا أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، جغرافي عربي أصيل إسبانيا الإسلامية، مؤلف الكتاب المعنون بـ: *كتاب الجغرافيا*، كتبه بين 1154-1161م. حقق الكتاب محمد حاج صدوق انطلاقا من تسع مخطوطات معروفة[5]. يظهر البلد الذي يهمنا في ثلاث فقرات من هذه النشرية، لقد أشار إليه لأول مرة في الفقرة 314 بالقرب من غانة وكَوْكَوْ (اليوم ڤاو)، أين يحمل اسم لا يعدو إلا أن يكون تحريفا لزافور (و)[6]، الكاتب صنفه ضمن البلدان السودانية التي إليها تتجه القوافل التجارية من السوس الأقصى في جنوب المغرب الأقصى. تحريف إشارة الزهري ترتكز على تعويض **ن** المبدئية في المقطع المنتهي بـ **ر**. الخطأ ر=ن من الأخطاء الشائعة عند النساخ العرب في العصر

---

(1)- *Description...par Abou-Obeïd-el-Bekri*, texte arabe, pp. 173-174. trad franç. pp 325-327 ; Monteil, pp. 68-70 et 108.

(2)-Mauny, pp. 294-296, 300,302, 303.

(3)- Ibrahima Diaman BATHILY (1897-1947), « Notices socio-historiques sur ancien royaume soninké du Gadiaga présentées annotées et publiées par Abdoulaye Bathily », *BIFAN*, Série B, XXXI, 1969, pp. 42-47.

(4)- Mauny, pp. 72-74. *et passim*.

(5)- « Kitâb al-djaʼrafiyya : mappemonde du calife al-maʼmun reproduite par Fazari siècles rééditée et commentée par Zuhrî (VI/ XII siècles) », texte arabe établi avec introduction en français (résumée en arabe) par Mahammad Hadj-Sadok, *Bulletin d'Études Orientales* (*Damas*), XXI, 1968, pp. 7-312.

(6)- Ibid. pp 189-190.

الوسيط، والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة لما يتعلق الأمر بالكلمات غير العربية[1]. تصحيح الخطأ يسمح لنا بالحصول على صيغة زافون (و) وهو مماثل للاسم الموجود في معجم البلدان لياقوت الحموي.

في موضعين آخرين من كتاب الجغرافيا وخاصة في الفقرتين 340[2] و341[3] من نشرية محمد حاج صدوق تعرض الاسم الذي يهمنا لتحريف عميق جدا: كرافون[4]. هذه الصيغة الأخيرة مرسومة في ست مخطوطات لكتاب الزهري والتي استخدمها الناشر. بالنسبة للمخطوطات الثلاث الأخرى، المخطوطة التي تحمل الرقم 1552 والموجودة في المكتبة الوطنية للجزائر (نسخة سنة 1860) تنقل لنا الاسم الصحيح زافون (و)، بينما المخطوطة رقم 945 بالرباط (نسخة سنة 1738) والمخطوطة رقم 25143 بالمتحف البريطاني بـ لوندرز (نسخة سنة 1739) هذه المخطوطات تتضمن صيغة **رافون** والتي لا تختلف عن الصيغة الصحيحة إلا بغياب نقطة فوق الحرف الأول[5]. هذا الخطأ الأخير غالبا ما يصادفنا لدى النساخ العرب القروسطيين. بالنسبة لهذه الصيغة الغريبة لـ **قرافون** والتي لا نجدها أبدا في أوصاف عربية أخرى لبلاد السودان، لكن محمد حاج صدوق يعتبرها الصيغة الأصح، ففي رأيي الأمر يتعلق كذلك بتحريف لصيغة زافون (و). أعتقد خاصة أن الحرفين الأوليين لهذا الاسم **قر** يمكننا تعويضهما بالحرف الأول **ز** المكتوب باللامبالاة.

ينتج من الفقرة 340 أن بلاد زافون تتموقع في نواحي 20 فرسخا (حوالي 115كم) شرق غانة، لابد إذن أن نلاحظ أنه في مكان الفرسخ بعض مخطوطات الكتاب تقول "يوم". هذه المعلومة غير دقيقة. في الواقع، حسب البكري، إذا أخذنا كلامه بعين الاعتبار، فإن بلاد زافون (و) توجد غرب غانة على الطريق المارة بهذه المدينة باتجاه قلنبو يعني نحو مصب النهر وبالتالي لابد من تعويض كلمة شرق الموجودة عند الزهري بكلمة غرب.

يذكّر كتاب الجغرافيا بقوة النمط الملاحظ في البحث الجغرافي المجهول الذي يحمل عنوان مشابه، *كتاب الجغرافيا*، هذا البحث موجود ضمن مخطوطة 317-320 في مكتبة بودليين بأكسفورد. قطع كثيرة

(1)- Lewicki, 1945, p104, n^0 28.

(2)- Hadj-Sadok, p. 181.

(3)- Ibid. pp 180-181.

(4)- Ibid, p. 82 (p. Amima), p. 95 (p. Ghana) et p. 100 (p. Amima).

(5)- Voir Hadj-Sadok, p. 181. Notes aux paragraphes 340 et 341. Voir aussi les manuscrits de Rabat et de Londres (Ibid, pp 17-19).

تضمنت وصفا لبلدان ومدن إفريقيا نشرها يوسف كمال[1] مرفقة بترجمة فرنسية. يجب أن نشير هنا إلى أن مقدمة هذا البحث تعود لأبي الحسن علي بن سعيد جغرافي عربي لامع من النصف الثاني من القرن 8م[2]. متعمدا التأثر بهذه الإشارة الخاطئة والتي تبدو منسوبة لنساخ الرسالة فقد نشر يوسف كمال القطع التي أشرنا إليها في الأعلى مع الكتاب الجغرافي الصحيح لابن سعيد. مع ذلك لابد من الإشارة هنا إلى أن يوسف كمال وبدقة أخذ في الحسبان اختلافات مهمة موجودة بين الكتابين، والذي ارتكز على مبادئ مختلفة متعلقة بتقسيم الأرض[3]. تبعا لمخطوطة أكسفورد[4] فإنه على 20 يوما من السير شرق غانة توجد **زاغون (و)** ودون شك هي **زافون (و)** الموجودة عند ياقوت. الحرف الثالث من هذه الكتابة **غ** في رأيي تحريف للحرف **ف** الأول[5]. وضعية هذه المدينة مقارنة بمدينة غانة (التي نجدها في كتاب الجغرافيا) خاطئة وتذكرنا بالوضعية المشار إليها في كتاب الزهري، الفرق يكمن في أن الأول من هذه الكتب لا يقدم المسافة بالفرسخ (1 فرسخ=5762م) لكن بالأيام ما يجعلنا نعتقد مرات كثيرة أنها كبيرة جدا. من جهة أخرى أحب هنا أن أذكر أن الأمر نفسه في واحدة من مخطوطات رسالة الزهري، هذه المسافة ليست 20 فرسخا وإنما 20 يوما.

الإشارة التالية حول بلاد زافون (و) توجد في الكتاب الجغرافي المجهول المعنون بـ: *كتاب الاستبصار*، الذي يتضمن وصف مصر، المغرب والسودان. هذا الكتاب الذي يعود تأليفه إلى نهاية القرن 7 (بعد 1192م)، ليس إلا تعديلا لجزء من كتاب *المسالك والممالك* للبكري الذي يعالج إفريقيا وينتهي إلى تفاصيل جديدة وأكثر حداثة[6]. جزء من كتاب الاستبصار تم نشره[7]. الآخر لا يزال مخطوط خاصة وصف السودان التي لم نتعرف عليها إلا انطلاقا من قطع موجزة نشرها يوسف كمال[8].

---

(1)- Kamal, f^{0} 1088 r^{o}-1090 v^{0}.

(2)-Ibid, f^{0} 1088 r^{o}.

(3)-Ibid, f^{0} 1088 r^{o} et f^{0}1089 r^{o}.

(4)- Ibid, f^{0} 1090 v$^{0.}$

(5)-ينظر في هذا الموضوع: Lewicki, 1945, p. 105 n^{o} 49.
حيث نجد تصحيف ف إلى غ وبذلك قرأ يوسف كمال هذا الاسم زاغون.

(6)- Kraçkowskiy, pp 308-309.

(7)- Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du sixième siècle de l'hégire, texte arabe publié pour la première fois par Alfred De Kremer, Vienne, 1852.

(8)- Kamal, f^{0} 915 r^{0}-915 v^{0}.

من بين القطع التي وصفت السودان والموجودة في كتاب الاستبصار، توجد واحدة تستحق انتباه خاص: أشار الكاتب المجهول إلى شعب أسود **زفنو** يسكن بلد يقع بين قلنبو (قالامبو) وغانة (كومبي صالح)[1]. لهذا الشعب مدينة تسمى **زافون**[2]. هذا الاسم الأخير يتوافق كلية مع اسم مملكة زافون والتي أشار إليها ياقوت. بالنسبة لاسم زافونو فإنه مماثل للاسم المشار إليه أعلاه، فقط أشير إليه بطريقة مختلفة.

المعلومات اللاحقة حول بلد زافون (و) تعود إلى النصف الثاني من القرن 13م وتوجد في كتابين جغرافيين هما: *كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة*[3]، *وكتاب البديع*[4] لأبي الحسن علي بن سعيد[5]. في الأول من هذه الكتب يظهر البلد الذي يهمنا تحت اسم رافون[6]، نعرف الفرق مع الصيغة الصحيحة بفضل معجم البلدان لياقوت، يكمن في غياب نقطة على الحرف الأول. يجعل ابن سعيد هذا البلد بالسودان في العرضية نفسها لأودغست[7] (اليوم تڤداوست، في الجنوب الشرقي لتامشاكيت بجنوب موريتانيا)[8]. تبعا لكتاب البديع أين استخدم الكاتب خاصة المعطيات المستخرجة من كتاب الزهري فإن قوافل سجلماسة تصل إلى مدن سودانية عديدة، من بينها أشار ابن سعيد إلى **غافون**[9]. هذا الاسم الأخير لابد من تصحيحه وبالتالي سيأخذ صيغة **زافون**. في مقطع موازي للزهري توجد صيغة **زافور** التي توافقه والتي صححتها إلى **زافون (و)**.

بهذه المناسبة أود أن أذكّر بموضع مشابه يتعلق بالعلاقات التجارية لسجلماسة مع السودان، على الأرجح مستخرجة من كتاب البديع لابن سعيد أو من الممكن أن تكون مستخرجة مباشرة من

---

(1)- Ibid, f^{0} 915 r^{0}.Youssouf Karnal lit ce nom Zafnou

(2)-.Ibid, قرأ يوسف كمال الاسم الثاني زافون

(3)-بعض مقاطع هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا مع ترجمتها الفرنسية نشرها:

Kamal, f^{0} 1080 -1o88 r^{0}.

(4)- الترجمة الفرنسية لهذه القطعة من هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا نشرت من قبل:

E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghreb (géographie et histoire) traduits de l'arabe et annotés, Alger, 1924, pp. 6-22.

(5)-ينظر حول هذا المؤلف:

Kraçkovskiy, pp. 352-358. Lewicki, 1969, pp 73-76.

(6)-Kamal, f^{0} 1083 v$^{0.}$ قرأ هذا الاسم رافون

(7)-. Ibid.

(8)-حول أودغست ينظر:

D et S Robert et J. Devisse, *Tegdaoust.I Recherches sur Aoudaghost*, Paris, 1970, passim.

(9)-Fagnan, p. 19.

عرف هذا الاسم بزفور وزافور في المخطوطة رقم 1552 بالمكتبة الوطنية الجزائر.

الكتاب الجغرافي للزهري، وتوجد كذلك في *تحفة الملوك* لابن زنبال، كتاب جغرافي ألف بعد 1554م. أجزاء هذا الكتاب المتعلقة بإفريقيا نشرها أ. فانيان[1]. تعرض اسم مدينة زافون لتحريف وأصبح راجون (فانيان: رادجون) ومع ذلك فإن المترجم يقارن ذلك مع العنوان، زافور فانيان مع زافور الزهري (مخ رقم: 1552 في المكتبة الوطنية الجزائر). التحريف يكمن في حذف نقطة من على الحرف الأول وتعويض **ف** بـ **ج** وهو خطأ غالبا ما يرتكبه النساخ العرب القروسطيين[2].

آخر إشارة أصلية حول بلاد زافون (و) توجد في مسالك الأبصار كتاب لشهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، كاتب عربي في النصف الأول من القرن 14م (1301-1349م)[3].

لدينا ترجمة فرنسية لبعض فصول هذا الكتاب والمتضمنة وصفا لبلاد المغرب وإفريقيا السوداء[4]. وكذلك نشرية لعدد من القطع بلغتها العربية الأصلية[5]. توجد إشارة لبلد زافون (و) في وصف مملكة مالي مبنية أساسا على المعلومات المستقاة من العمري من قبل المغربي أبو سعيد عثمان الدكالي الذي أمضى خمسة وثلاثين سنة من عمره في هذا البلد[6]. عرض العمري حالة اثني عشرة مقاطعة تتكون منها هذه المملكة ومن بينها أشار إلى، المرتبة الثانية مباشرة بعد غانة، مقاطعة **زاقون**. تتواجد هذه الصيغة الأخيرة في النشرية الجزئية التي أعدها يوسف كمال[7]. قودفروي ديمومبيناس مترجم فرنسي لكتاب العمري كتبها "زاڤون" وقارنها بـ "زافاڤوا" (زافقو/ زافونو عند البكري) لقد تكهن أن واحدا من هذه النصوص تقدم قراءة خاطئة لهذا الاسم[8]. على الرغم من أن هذه الملاحظة ليست مقبولة إلا جزئيا بسبب أنه ينتج من تدقيقاتنا أنه يستلزم تصحيح الكتابتين المشار إليهما أعلاه، وذلك بهدف الحصول على صيغة زافون أو زافونو.

---

(1)- Fagnan, pp. 121-193.

ينظر خاصة الصفحة 79 أين عرف المترجم رادجون وراجون بالاسم زافور وزفور في المخطوطة رقم 1552 بالمكتبة الوطنية الجزائر.

(2)- ينظر حول هذا الموضوع: Lewicki, 1945, 105, n° 44

(3)-.ينظر حول هذا المؤلف: Kraçkovskiy, pp. 405-411 ; Lewicki, 1969, pp. 82-86.

(4)- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الأول: إفريقيا، مصر السفلى، ترجمة وتعليق مع مقدمة و5 خرائط، قودفروي ديمومبين، باريس، 1927.

(5)-Kamal, f^0 1236 r^0 -1243 r^0.

(6)-. Lewicki, 1969, p. 85.

(7)-ينظر: Kamal, f^0 1241 r^0 حيث كتب هذا الاسم زاكون.

(8)- العمري، القسم الأول، ص: 55.

استعمل كتاب العمري شهاب الدين أحمد القلقشندي (ت. 1418م) في موسوعته المعنونة بـ: *صبح الأعشى*، كتبها سنة 1412م، واحدة من أجزائها متعلقة بالجغرافيا[1]. من بين هذه القطع المتعلقة بإفريقيا نشرها يوسف كمال مرفقة بترجمة فرنسية[2]. في وصفه لمملكة مالي اعتمد القلقشندي على مسالك الأبصار للعمري وكتب أن هذه الدولة تتكون من أربعة عشرة مقاطعة ومن بينها في المرتبة الثانية مباشرة بعد غانة تعود إلى مقاطعة زافون[3]. كذلك قدم لنا القلقشندي الصيغة الصحيحة لهذا الاسم، من الممكن إذن أن تكون صيغة مشابهة للموجودة في مخطوطة كتاب العمري والتي استعملها القلقشندي.

نختصر كل ما نقلته إلينا المصادر العربية بين القرنين 11 و15م في موضوع أسماء بلاد زافون (و)، كل المعطيات جعلتنا نعتقد أن الكتّاب العرب استعملوا ثلاث كتابات مختلفة. الأولى زافون (و) وهي مرسومة في:

أ/ موضعين في معجم البلدان لياقوت.

ب/ واحدة من مخطوطات كتاب الجغرافيا للزهري.

ج/ العمل الجغرافي المجهول المعنون بـ: كتاب الاستبصار.

د/ كتاب القلقشندي.

هذه الكتابة تذكرنا بالصيغ المحرفة مثل **زافور** عند الزهري و**قارافون** عند الكاتب نفسه، **رافون** عند الكاتب نفسه وعند ابن سعيد، **زاغونو** (في مخطوطة أكسفورد لود.317-320 وفي الترجمة الفرنسية لكتاب العمري) و**زاقون** (عند العمري، نشرية يوسف كمال). الكتابة الثانية المستقلة للاسم الذي يهمنا **زافونو**، لقد تمت الإشارة إلى هذا الاسم من قبل الكاتب المجهول للاستبصار. الكتابة الثالثة والأخيرة **زافقو** التي أشار إليها البكري لا تعدو أن تكون تحريفا للإشارة الأولية **زافونو**. هذه الصيغ الثلاث المتباينة يمكن أن تنطق كلها وببساطة **زافونو**، دون أن ننشغل بمد حروف العلة الظاهرة في الإشارات العربية: حروف العلة المدية لا تلعب هنا إلا دور في القراءة وليست إلا مظهرا لعادة إملائية.

---

(1)-ينظر حول القلقشندي وإشاراته لإفريقيا:

Kraçkovskiy, pp. 411-415 ; Lewicki, 1969, pp. 90-91.

(2)- Kamal, f° 1399 r^0-14o6 r^0

(3)- Ibid, f° 1405 v^0. قرأ يوسف كمال هذا الاسم زافون.

أما فيما يتعلق بالموضع الجغرافي لبلد زافون يظهر على ضوء المصادر العربية التي اعتمدنا عليها سابقا، أنه يمكن تحديد موقع هذا البلد كما قلنا آنفا، في الساحل الجنوبي بين نهر السنغال (في نواحي مصب النهر) وآثار كومبي صالح، يعني تقريبا بين 8° و12° غربا. في الجزء الغربي من هذا الإقليم توجد الناحية التاريخية لـ ديافونو وفي رأيي معها يمكن تحديد **زافون، زافونو** المصادر العربية بين القرنين 11-15م. شكلت منطقة ديافونو جزء من الأقاليم الآهلة لقرون من قبل الشعب السونينكي أين تضمنت الروايات التاريخية لعدد من الإشارات حول موضعه. من خلال المعلومات التي قدمها الحاج عمر با (IFAN de Dakar) وتبعا لخريطة توزيع الاثنيات في جمهورية مالي الحالية منطقة ديافونو تقع في موضع التجزئة القديمة لـ يليماني في حلقة نيورو على المجرى الأعلى لنهر كوليمبيني الذي يصب على يمين السنغال. إنها تشكل جزء من المنطقة الاقتصادية الحالية لكاييس. تقع ديافونو إذن في منطقة الساحل الجنوبي متاخمة للحدود الشمالية لموريتانيا الحالية وغرب مناطق سيرو وديومبوكو (هذه الأخيرة تكون منطقة خلفية لمدينة كاييس) في جنوب منطقة ترينقا وفي الشرق ڤويديومي وفي الشمال الشرقي كانياڤا.

إذا جعلنا الصيغ العربية زافون، زافونو، وزافونوا تعود على الاسم المحلي لمنطقة ديافونو الآهلة بالشعب السونينكي، بقي لنا كذلك أن نشرح مشكلة تعويض د الأولية بالحرف ز الموجودة في المصادر العربية القروسطية. يوجد شرحان ممكنان. من خلال الشرح الأول يسمع العرب في اسم بلد سوداني صوت لغوي غير معروف لدى الأسلوب الصوتي العربي، وهو يعود على حرف ز. بفضل هذه الفرضية توجد كتابة للاسم السوداني ديادیّ من طرف غازي الموجود في التاريخ العربي للسودان المعنون بـ *تاريخ الفتاش* (ق 15-16م) حيث نجد الحرف د الأول يمكن تعويضه بـ ج والدال الثانية ربما تعود على ز[1]. إلى هنا يظهر أن الشرح الثاني أكثر احتمالا من حيث الصحة. من خلال الشرح نفسه المعلومة حول ديافونو وكذلك اسم هذا البلد وصل إلى الكتّاب العرب القروسطيين بوسيط إخباري يتحدث لغة لها أسلوب صوتي فيه الصوت اللغوي د هو ز بطريقة متعارضة. إذا أخذنا بهذه الإمكانية الأخيرة سنكون مجبرين على الاعتقاد بأن هؤلاء الإخباريين السودانيين يتحدثون لغة آزر والتي كانت في فترة ازدهار ممالك أودغست وغانة مستعملة في كل أقاليم الساحل السوداني كلغة تجارية ذات خصائص عشائرية متعددة[2]. إنها واحدة

(1)- أ. هوداس و.م.دولافوس، تاريخ الفتاش أو تاريخ الباحث عن تاريخ المدن، الجيوش والشخصيات المشهورة في التكرور لمحمود بن الحاج المتوكل كعت وواحد من أبنائه، باريس، 1919، ص:38-39. هوداس ودولافوس، تاريخ الفتاش، ترجمة مرفقة بتعليقات، فهرس وخريطة، باريس، 1919، ص:70.

(2)- Monteil, « La langue azer après les documents recueillis par Th Monod et D Brosset » *in Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, 1939, II, pp 212-343 ; voir surtout pp. 215-216.

من اللهجات السونينكية التي وظفت بعض الألفاظ البربرية، هذه اللغة تستخدم من قبل السونينكيين أفضل من البربر. هذه اللغة لا زالت متحدث بها إلى وقت قريب في جنوب ووسط موريتانيا: تيشيت، ولاتة، وادان، وشنقيت. فيما يخص أمثلة موضع د و ز في لغة آزر أشير هنا إلى كلمتين متطابقتين تصفان الأرنب: (كانديان) و(كازانان)[1]، الأمر نفسه بالنسبة لاسم المدينة القديمة لديارا في السودان الغربي ففي لغة آزر تصبح أحيانا زارا (توجد لهجة كذلك هذا الاسم ينطق آدير كما ينطق آزر)[2]. كذلك الكتاب العرب القروسطيين الذين أشاروا إلى هذا الاسم لمنطقة ديافونو على الأرجح لم يستخرجوه مباشرة من اللغة السونينكية ولكن من اللغة المختلطة آزر أين ينطق هذا الاسم كذلك دافونو وزافونو.

نحاول الآن وباختصار أن نعيد بناء تاريخ بلاد زافون (ديافونو) على ضوء المعلومات النادرة التي قدمتها لنا المصادر العربية المذكورة سابقا. سأقارنها فيما بعد مع الروايات الشفوية للسونينكيين المتعلقة بديافونو.

من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري كتبه في 1068م، وهو أقدم المصادر العربية حول هذا الموضوع، فهي بلد آهل بشعب أسود عبد أفعى (يشبه في تفاصيله التنّين)[3]. أكّد مونتاي أنه توجد هذه العبادة في رواية سونينكية تصور أفعى سوداء تسمى بيدا. بقيت هذه الأفعى محترمة من قبل السونينكيين إلى يومنا هذا[4]. للأسف الشديد لم يطلعنا البكري أبدا على الوضعية السياسية لزافون إذ نجهل حتى إذا كان هذا البلد مملكة مستقلة. أحيانا ومن باب الحتمية يجب أن نؤمن بطريقة أو بأخرى وفي الفترة التي كتب فيها هذا الجغرافي أن دولة غانة وإلى الغزوة المرابطية البربرية في سنة 1076م قد جمعت تحت سيطرتها قسم كبير من السودان الغربي. الروايات القبلية السونينكية تعلمنا فقط أن الفروع الأولى من هذا الشعب عاشت بديافونو، نحو نهاية القرن 7م. فروع أخرى يقودها ديا فوني (منه جاء اسم المنطقة) بدأت تستقر منذ 759م، قسم ثالث التحق في نهاية القرن 8م بعد سقوط دولة واڤادو التي أسسها السونينكيون[5]. من خلال دولافوس الذي له فضل تقرير تاريخية الروايات، استطاعت مستعمرة ديافونو السونينكية التخلص من تبعية ملوك غانة (من الممكن بطريقة غير مباشرة) بين نهاية القرن الثامن وسنة 1076م تاريخ الغزو المرابطي[6]. تبعا لهذا الحدث الأخير، الكثير من البطون السونينكية غادرت غانة.

---

(1)-Ibid, p.233.

(2)-Ibid, p.245.

(3)- وصف.... أبو عبيد البكري، النص العربي، ص: 173-174. الترجمة الفرنسية، ص:326. مونتاي، ص:69.

(4)- V. Monteil, p. 109, n° 8.

(5)- Delafosse, pp. 256-257. et 319, et II, p. 154.

(6)- Ibid, I, pp. 265-266, et II, pp. 27 et 154-155.

حسب الرواية واحدة من هذه البطون التي يقودها شيخ عصبة دوكوري وهو أخ مؤسس دولة باكونو ڤومبو (تقع شرق نيورو) استقرت بديافونو[1]. للأسف، سكتت الروايات السونينكية عن تاريخ ديافونو نحو القرن 11م وهنا يظهر أن هذه الدولة وبسرعة أصبحت ذات أهمية ووضعت تحت سلطتها خلال العقود الموالية من الزمن النواحي القريبة الآهلة بالعصبية السونينكية. في الوقت ذاته اتجه قادة ديافونو لاستغلال عدم قدرة ملوك غانة الذين أصبحوا -بعد الغزو المرابطي في سنة 1076م ودخولهم إلى الإسلام- (يعني إثارة بعض المشاكل الداخلية) وقتيا غير قادرين على رؤية ارتفاع هيمنتهم على الأقاليم التي أخضعوها لسيطرتهم سابقا. حتى المساعدة العسكرية التي قدموها للمرابطين لم تكن شيئا ذا أهمية حسب موضع من كتاب الزهري[2].

يظهر أن اعتناق السلالة السونينكية بغانة للإسلام كانت في الوقت نفسه الذي أسلمت فيه العائلة الحاكمة بزافونو. في كل الحالات وفي فترة الرواية التي أشار إليها ياقوت الحموي يعني في سنوات 1121-1147م كان ملك هذا الدولة مسلما وحج إلى مكة مرورا بالمغرب[3].

يعتبر الربع الثاني من القرن 12م في رأيي فترة الازدهار الكبير لدولة زافون. حسب الرواية التي أشار إليها ياقوت الحموي فإن السلطان الذي حكم هذا البلد كان ملكا قويا وكفءً ويعلم كذلك كيف يبسط سيطرته على بربر الصحراء الغربية البدو (الملثمون). يتعلق الأمر خاصة بـ: لمتونة، مسوفة، وجدالة. في بعض الأحيان تشكل هذه القبائل قسم من كونفدرالية المرابطين، وأغلب فروعها زحفوا نحو الشمال تبعا لغزو غرب بلاد المغرب في سنة 1053م من قبل أمراء المرابطين أبو بكر بن عمر وابن أخيه يوسف بن تاشفين[4]. لما نشبت اضطرابات بين فروع لمتونة ومسوفة التي بقيت بالصحراء ترك أبو بكر المغرب بعد استتبابه للأمن تاركا القيادة ليوسف بن تاشفين. هذا الأخير نجح في الاستقلال على أبي بكر الذي وبعد أن حاول استرجاع سلطته دون فائدة انسحب إلى السودان الغربي واقتصرت سيطرته على فروع لمتونة وجدالة ومسوفة التي بقيت هناك ودخلت في صراع وقتال مع الملوك السودانيين[5]. بعد أن حقق عددا من الانتصارات الكبيرة منها غزو غانة وأسلمتها في سنة 1076م دخل أبو بكر في سنة 1087م في حملة ضد

---

(1)- Delafosse, I, pp. 265-266.

(2)- Hadj-Sadok, pp. 181-182, § 338.

(3)- ينظر في الأعلى ص:5.

(4)- Ibn Khaldoun, II, pp. 69-72.

(5)- Ibid, p. 72; Paulo Fernando De Moraes Farias, « The Almoravids Some Questions Concerning the Character of the Movement during its Periods of Closest Contact with the Western Sudan », *BIFAN*, Série B, XXIX, 3-4, 1967, pp. 848-849.

الزنوج[1]. بعد وفاته ضعفت كونفدرالية القبائل المرابطية بالصحراء بسبب هروبها إلى المغرب الأقصى في سنة 1077-1078م في حين بعض فروع لمتونة، جدّالة، ومسوفة قد تصدّعت نهائيا[2]. التحطم الصحراوي لهذه الفروع الضعيفة والمتروكة مثلما يتضح من رواية ياقوت عرضة لتأثير الجيران، مملكة زافونو السودانية، والتي خلال العقود التالية عوضت غانة كمسيطرة على السودان الغربي.

كذلك ارتأينا إعادة الوضعية قبل 1054-1055م لما كانت مملكة أودغست البربرية الواقعة في الشمال الشرقي لموريتانيا تابعة لملك غانة[3]. وضعية مماثلة تنتج بصفة متأخرة في القرن 14م أين أصبحت مدن إيوالاتن (ولاتة) وتونبوكتو (تومبوكتو)، المراكز القبلية لمسوفة، إقامات للحكام الممثلين للسلاطين السودانيين بمالي[4].

يظهر أن القبائل البربرية المستقرة في الجنوب الغربي والتابعة لملوك زافون قد مارست نوع من التأثير الحضاري على سكان هذا البلد. لقد أشرنا قبل هذا إلى دخول ملوك زافون للإسلام الأمر الذي يفسر فقط بتأثير القبائل المرابطية التي كانت دائما تتغذى بالحمية الدينية التي تميز بها أبو بكر بن عمر لكنها بعد 1087م لم يعد لها سوى غايات هادئة. تفصيل آخر شاهد على التأثير البربري على سكان زافون، وهو ما أشار إليه ياقوت الحموي أن ملك هذه الدولة يغطي وجهه على الطريقة البربرية. بالمناسبة فالكلمة العربية —منقّب- تمت الإشارة إليها في رواية ياقوت وتعني حرفيا —واضع اللثام، النقاب-. إنه قماش يغطي إلى النقطة التي يريد الشخص أن يرفعه إليها، وبالتالي لن يصبح معروفا حتى عند والديه الأكثر قربا منه. من خلال البكري الذي وجدنا عنده هذا الوصف للنقاب، فهذا النقاب لا يضعه فقط بدو القبائل البربرية المستقرة بالصحراء[5]، لكن كذلك يضعه سكان سجلماسة وهي مدينة تقع في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى وآهلة بالبربر الذين دخلوا في علاقات تجارية نشطة جدا مع الصحراء الغربية والسودان الغربي[6].

---

(1)-.Ibid, pp. 848-850.

(2)- Ibid., p. 849.

(3)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:168. الترجمة الفرنسية، ص: 317. مونتاي، ص:62-63. ص: 104. رقم 23.

(4)-نستدل بذلك من خلال رحلة ابن بطوطة الذي زار هذه المدن سنة 1252-53 ينظر:

الترجمة مع التعليق موني، مونتاي، جنيدي، روبار، دوفيس، نصوص ووثائق متعلقة بتاريخ إفريقيا، قطع مستخرجة من رحلة ابن بطوطة، داكار، 1966، ص: 41-42 و69-70

(5)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:170. الترجمة الفرنسية، ص:320-321. مونتاي، ص: 64-65 و105-106

(6)-أبو عبيد البكري، وصف....، النص العربي، ص:148. الترجمة الفرنسية، ص: 282-283. مونتاي، ص: 42.

التقدير الكبير الذي قابل به الأمير المرابطي ملك زافون أثناء زيارته الأخيرة إلى مراكش ينتج على الأغلب كون هذا الحاكم يراقب أغلب الطرق التجارية الرابطة بين السودان الغربي وغرب المغرب. لقد شكلت عاصمته في النصف الأول من القرن 12م نقطة انطلاق القوافل التي تنقل الذهب ومواد أخرى لا تقل أهمية من السودان الغربي إلى سجلماسة، أكبر مركز تجاري للدولة المرابطية بالمغرب الأقصى- المهتمة على الخصوص بالتجارة مع بلدان الزنوج. وجود طريق تجاري في هذه الفترة يربط مباشرة عاصمة مملكة زافون بسجلماسة أمر مؤكد في أحد مواضع كتاب الزهري الذي كتب عن كل المدن السودانية وهذه العاصمة تعتبر الأقرب من مدينة سجلماسة[1].

كيف يربط هذا الطريق في النصف الأول من القرن 12م عاصمة زافونو (ديافونو) بسجلماسة وبغرب المغرب؟ يظهر أنها توافق في قسمها الجنوبي بطريق القوافل التي تربط أدرار موريتانيا بمدينة ڤوغي (ڤوري)، عاصمة ديافونو في منتصف القرن 19م وقد وصلنا وصفها من خلال هـ. بارث[2]. هذه الطريق المارة بـ ڤوغي عبر كيفا وتيدجيڤجا (تدجيكجا، تيجيكجا) في بلاد تاڤانت في مدينة أتار عاصمة أدرار الموريتانية. أتار موضع قديم جدا وقد احتل في العصر الحديث الموقع الوسيط القريب من أزوڤي (أزوقي، أزوكي عند الكتاب العرب خلال القرنين 11-13م)، وهي عاصمة قديمة لقبيلة لمتونة ومرحلة مهمة من على الطريق التجارية المؤدية من السودان الغربي إلى المغرب[3]. بالنسبة لمدينة تيدجيكجا فقد أسست متأخرة نسبيا ولذلك وجدناها في سنة 1413م على خريطة ميسا دي فيلادستس (تحت اسم توتيڤا)[4]. يظهر أنها كذلك احتلت موضع آخر قديم جدا على الأرجح المركز الرئيسي لـ تاڤانت. في رأيي هذا المركز وجد بالقرب من واحة أشاريم الواقعة في الشمال الغربي لتدجيكجا. في مارس 1968 تم العثور في هذه الناحية على كنز يتكون من الحلي ونقود ذهبية عربية. هذه الأخيرة تحمل اسم الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي حكم الجزء الغربي من المغرب وإسبانيا الإسلامية بين سنتي 1107-1143م[5]. وحسب

(1)- Hadj-Sadok, p. 180. p. 340.

(2)- H .Barth, *Reisen und Entdeckungen in Nord- und Central-Africa in den Jahren 1849 bis 1855*, Gotha, 1857-1858, V, pp. 500-501 et 523-525.

(3)- Mauny, p. 429 et passim.

(4)- C. De La Roncière, *La découverte de l'Afrique au Moyen Age*, Le Caire, 1925-1927, p. 135.

(5)-حول هذا الكنز ينظر:

Nouakchott-Information. Bulletin Quotidien du Service de l'Information, n° 506, II, octobre 1968, pp. 2-3.

الرواية فإنه في المنطقة نفسها في إلديبا موضع بعيد عن تدجيكجا بيوم ونصف يوجد ضريح أبي بكر بن عمر[1].

فيما يتعلق بالقسم التابع للطريق الرابطة لعاصمة مملكة زافون بسجلماسة يظهر أنه بعد أزوقي تأخذ اتجاه كدية إدجيل قرب حصن ڤورو الحالي لكي تتجه بعيدا نحو جنوب المغرب الأقصى والجنوب الشرقي وتصل إلى سجلماسة. قدم لنا البكري وصف هذا الطريق بطريقة معاكسة. لقد أكد[2] أن هذه الطريق تؤدي إلى وادي درعة إلى جبل إزال (كذلك، إيزال، إزيل) والتي ربطها الباحثون بكدية إيدجيل[3] ثم يتجه بعد ذلك إلى أراضي قبيلة لمتونة وبالتالي نحو أزوكي (أزوقي) وذلك لما كانت عاصمة لهذه القبيلة في أدرار الموريتانية. إنه من الصعب إعادة بناء هذا القطاع من الطريق المؤدية إلى كدية إدجيل في ضفاف وادي درعة وإلى سجلماسة. وإلى هنا يمكن تعريفه وربطه بقطاع الطريق المسماة "الطريق اللمتوني" والذي من خلال الروايات الموريتانية فقد كان مستعملا في القرن 11م ومما يعبر به بئر مغرين (حصن ترينكات في الخرائط الحالية)، عين بن تليلي وتندوف[4].

تحدث الزهري كذلك عن العلاقات التجارية لزافون مع مركز تجاري آخر بالمغرب وهو السوس الأقصى الواقع في جنوب المغرب الأقصى[5].

على عكس المصادر العربية فالروايات السونينكية لا تقدم لنا أية معلومة تتعلق بالتطور الكبير للقوة السياسية والاقتصادية لحكام ديافونو في النصف الأول من القرن 12م. وعلى عكس كل هذا[6] فإنها تخبرنا في نهاية القرن 11م وبداية القرن 12م بأنها قد خضعت منطقة ديافونو والمناطق القريبة منها لتأثير ملوك السونينكي من عائلة نياكاتي. بعد سقوط غانة في 1076م قام هؤلاء الأخيرون بتأسيس دولة مستقلة في دائرة كينڤوي الواقعة شرق ديافونو مع مدينة ديارا كعاصمة للدولة. آخر أمراء هذه العائلة (الوحيد الذي تقدم عنه الروايات السونينكية تفاصيل في هذا الموضوع) المسمى مانا ماغان نياكاتي، الذي حكم حسب م. دولافوس في النصف الأول من القرن 13م، وأسّس دولة هامة جدا تمتد على نواحي

---

(1)- Delafosse, I, p. 57.

(2)- أبو عبيد البكري، وصف...، النص العربي، ص: 163-164. الترجمة الفرنسية، ص: 309-310. مونتاي، ص: 58 و99-100.

(3)- V. Monteil, p. 99 n°3

(4)-حول هذه الطريق ينظر:

F. De La Chapelle, « Esquisse d'une histoire du Sahara occidental », *Hespéris*, XI, 1931, pp. 35-95.

(5)- Hadj-Sadok, pp. 189-190, p314.

(6)- Delafosse, II, pp. 154-155 et 266-267.

عديدة قريبة إلى غاية كارتا بالجنوب وإلى باكونو في الشرق. أصبح مانا ماغان نياكاتي غني إلى درجة كبيرة بفضل التجارة مع التكرور (على السنغال الأدنى) من جهة ومع تاڤانت من جهة أخرى وقد استطاع إخضاع عدد من عصابات المقاتلين التي أصبح عليها قائدا. حفظت صورة هذا الحاكم في الروايات السونينكية التي تتوافق بصدق مع صورة ملك زافون التي وجدناها عند ياقوت. في هذه الحالة لا يجب علينا أن نطرح إذا ما كان مانا ماغان نياكاتي لم يعش في النصف الأول من القرن 13م لكن مئة سنة قبل ذلك، وأنه لم يقم في مدينة ديارا ولكن في عاصمة مدينة ديافونو؟ وإذا ما كان هو نفسه ملك زافون الذي تحدث عنه ياقوت والذي فرض أوامره على القبائل البدو بالصحراء الغربية؟ الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن أن تكون إلا من قبل الباحثين المتأخرين عن الروايات التاريخية لقبيلة السونينكي.

سيطرة ملك زافون على الدول الزنجية الصغيرة بالسودان الغربي كانت على الأرجح سنة 1150م. بعد ذلك خرجت من الأيدي التي سيطرت عليها قرون كاملة يعني ملوك غانة. في كل الحالات وحسب وصف بلاد الزنوج الموجود في الكتاب الجغرافي للإدريسي (1154م) فإن ملوك غانة في هذه الفترة أخضعوا لرقابتهم الأقاليم المتاخمة لغرب بلاد ماڤزارا (أقاليم على السودان الغربي والأوسط) وفي الشرق على ناحية مداسا (على النيجر في مقر مدينة كابارا الحالية) وفي الجنوب تلامس أراضي الذهب وانقارا (وانڤارا) وناحية بوري الحالية[1]. من المهم أنه من بين كل الممالك ونواحي السودان الغربي التي تخضع لملك غانة لم يشر الإدريسي إلاّ إلى بلد زافون. هذه الحالة من الاختيارات نتجت على الأرجح بسبب ثغرات في المعلومات التي طرحها هذا الجغرافي. على كل حال فإن هذا البلد معروف جدا عند الزهري الذي ألف كتابه في الفترة نفسها التي ألف فيها الإدريسي كتابه يعني سنوات 1154-1161م.

حكما على المعلومات حول السودان الغربي التي أشار إليها الزهري وكلها تعود بإحكام مثلما عند الإدريسي لنهضة قوة غانة منذ سنة 1150م. من خلاله[2] فالعاصمة الثقافية والتجارية لهذه المملكة أسلمت في هذه الفترة والتي كانت في الوقت نفسه عاصمة لبلاد جناوة وهذا الاسم ليس إلا التسمية البربر-عربية للسودان الغربي. على الرغم من أنه كان كذلك في مجرى وجود وأهمية مملكة زافون والتي أشار إلى اسمها محرفا. حسب الزهري[3] فإن سكان هذا البلد كانوا مسلمين. لقد هجموا على بلاد أميمة الواقعة في الجنوب الغربي لتومبوكتو، وكانت هذه الهجمات بهدف قنص العبيد. بعيدا عن ذلك كتب الزهري أن

(1)- Dozy et De Goeje, texte arabe pp. 7-10, trad. franç. pp. 9-11 ; voir aussi Mauny, p. 303 *et passim.*

(2)- Hadj-Sadok, p. 182, p.336.

(3)- Ibid., p. 182, p. 337 et p. 184 p. 333.

الكل مثلما في البلدان السودانية الأخرى كغانة، أميمة أو كَوْكَوْ، فإن تجار سجلماسة (التي تسمى تافلالت) وبلاد السوس في جنوب المغرب الأقصى يصلون إلى غاية زافون(و) بحثا عن الذهب، العبيد، العاج، خشب الأبنوس...إلخ. كذلك حتى وإن وضع بلد زافون في حوالي منتصف القرن 12م تحت سيطرة غانة فقد استمر على الأقل في لعب دور اقتصادي هام بالسودان الغربي كواحد من المراكز التجارية الرئيسية لبلدان الزنوج الجاذبة للتجار المغاربة. نضيف إلى ذلك أنه يوجد موضع غير واضح جيدا في كتاب ياقوت فيه وصف مدينة غدامس[1] التجارية ومن خلاله نستنتج أن تجار هذه المدينة يصلون إلى زافون عبر الطريق المار بقاو.

كتاب الاستبصار الذي كتب في نهاية القرن 12م يخبرنا أن لبلد زافون عاصمة تحمل الاسم نفسه وقد أشار إليها تحت تسمية ز(ا)ف(و)ن(و)[2]. ومن جهة أخرى قد يكون هذا الاسم بُحث عنه في عاصمة زافون من قبل إخباري أو جغرافي عربي ما وأن اسمها الحقيقي قد يكون مختلفا. من الممكن أن يتعلق الأمر بالعاصمة القديمة لناحية ديافونو والتي –حسب تاريخ الفتاش وهو تاريخ سوداني ق 15-16م- كانت تسمى ساعين دنبا (ساعين دمبا). لقد كانت موجودة سلفا في الفترة التي كانت فيها غانة تحكمها عائلة كاياماغا ويتضح أن خرابها كان بعد سقوط هذه العائلة أي بعد سنتي 1076-1077م[3]. ليس من المستحيل أن نربط ساعين دمبا بالموضع الحالي لدمبا الواقعة على الحد الجنوبي الغربي لناحية ديافونو والتي تعرفنا عليها بفضل الخريطة التي أعدها الحاج عمر با (IFAN de Dakar).

قبل أن أنهي مقالي هذا أود أن أقول كلمة في موضوع اسم وأصل شعب زافون على ضوء المصادر العربية القروسطية الأولى. يعلمنا المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار أن بلد زافون كان آهلا بشعب يسمى البرابير. هذا الاسم ليس إلا جمعا لاسم باربارا أو بربر. لحد الآن لا نعرف لأي شعب منح هذا الاسم. من الممكن أن مؤلف كتاب الاستبصار قد فكر بالبربر، وفي هذه الحالة قد يكون ذلك تلميحا للحياة نصف البدوية التي يعيشها سكان ديافونو (تحدث عنهم ياقوت كذلك) ولعادة تغطية الوجه التي تخفيهم عن جيرانهم البربر البدو. من جهة أخرى ليس من المستحيل أنه تحت اسم البرابير يعني باربارا أو بربر يختفي الشعب السوداني الذي يسميه الجغرافي الزهري باربارا وأشار إليه أثناء وصفه للسودان. ومن

(1)- Wüstenfeld, III, p. 776.

(2)- Kamal, f^0 915 r^0.

(3)-هوداس ودولافوس، تاريخ الفتاش، النص العربي، ص:39. الترجمة الفرنسية، ص: 70-71.
ينظر كذلك: Mauny, p. 125.

خلاله فالبربر قسم من جناوة أي الزنوج[1]. تبعا لوصف الزهري نستخلص أن هذا الشعب يسكن في وسط الصحراء (على الأرجح يتعلق الأمر بفيافي الساحل الجنوبي) ويرتدي الجلود وهو أمر عادي لدى شعب يغلب عليه المزارعون وعددهم كثير جدا ويشغلون الأراضي الواقعة قرب غانة وتادمكة (شمال ڤاو) التي كانوا يغيرون عليها لقنص العبيد. لقد كان لهم ملك وهو رامي سهام ممتاز. يظهر أنه يمكن تمييزهم بندوب الوشم المحيطة بالوجه وهو عند النساء مثلما هو عند الرجال. هذا الأمر يذكّر بعادة وشم الوجه والأصداغ بالحديد الساخن والتي رآها الإدريسي عند شعب لملم السوداني الجار الشمالي لغانة[2]. من خلال الزهري، يعتقد شعوب البارابرا أنهم الأشرف من بين الشعوب السودانية ويزعمون أن أصل حكام غانة من قبيلتهم[3]. إذن فهي تعد فرع من السونينكي. هل يمكننا إذن أن نعرّف البرابير (بارابرا، باربار) بالشعب الزنجي المسمى البارابار والذي حسب الرواية المحلية سكن في القرن 11م موضع تيشيت في جنوب شرق موريتانيا؟ بعض الباحثين يشبّه هذا الشعب الأسطوري بشعب المزارعين ذوي البشرة السوداء المسمى بارباروس في المصادر البرتغالية حيث ظهروا في ق 14م في أدرار الموريتانية على مقربة من الزناڤيين (زناقة) البربر[4].

(1)-Hadj-Sadok, pp 101 et 180-181 (p. 337, 338, 339).

(2)- Dozy et De Goeje, texte arabe, p. 4, trad. franç. p. 4

(3)-.Hadj-Sadok, pp. 101 et 181, (p. 338.)

(4)- P. De Cenival et T. Monod, *Description de la côte Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandez (1506-1507),* Paris, 1938, pp. 96-97, 120-121, 150, $n^0$140.